قراءة في كتاب "الفلسفة والحضارة" لمحمد مولفي

حين تصبح الفلسفة سلاحا لإقصاء الآخر

أ.د_كرد محمد https://kerdmed.netlify.app/ | mohammed.kerd@univ-mascara.dz |

أ.د. محمد كرد **أستاذ للتعليم العالي في الفلسفة** و**عميد كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية** بجامعة مصطفى اسطمبولي، معسكر، الجزائر. وقد كرس أكثر من ثلاثة عقود من حياته لدراسة الفلسفة واستكشاف الفكر الإنساني تجربة أكاديمية تتجاوز 32 عاما منذ التحاقه بالتدريس عام 1991، ومشاركته في أكثر من 20 مؤتمرا وطنيا ودوليا منذ 2009، يعد أ.د. كرد من الأصوات في الفلسفة الجزائرية المعاصرة..

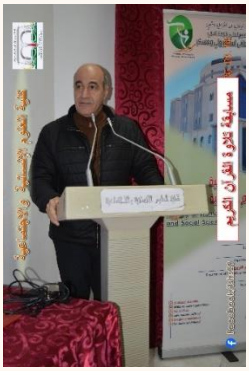

مقال عن ضيف الكلية

من هو محمد مولفي؟

محمد مولفي أستاذ فلسفة جزائري في جامعة وهران، يدرس الفلسفة الأوروبية ويحللها بعين ناقدة. ما يميزه عن غيره أنه لا يكتفي بشرح أفكار الفلاسفة الغربيين، بل يسأل سؤالا أعمق :**هل كانت هذه الفلسفة حيادية فعلا؟ أم أنها كانت تخدم أغراضا سياسية واستعمارية؟**

وقد كتب عالم أمريكي اسمه وارن مونتاغ مقالة طويلة يعرف فيها بكتاب مولفي "الفلسفة والحضارة" للقراء الغربيين، وهي المقالة التي نستند إليها في هذه القراءة.

يعد الأستاذ **محمد مولفي** (جامعة وهران، الجزائر) صوتا فلسفيا استثنائيا في الساحة الدولية؛ إذ يمارس "المقاومة باللغة" من داخل النص الفلسفي الغربي نفسه. بأسلوبه الصارم الذي يفضل التحليل الداخلي للنصوص على الخطاب الأيديولوجي المباشر، استطاع مولفي أن يفكك أوهام "المركزية الأوروبية" بمرآة نصوصها الكبرى (كانط، هيغل، ماركس، هوسرل، وهيدغر).

المسار الأكاديمي والإنتاج العلمي (BIO-BIBLIOGRAPHI)

يتميز مشروع الأستاذ مولفي بالتجذر في تاريخ الفلسفة الغربية ونقدها من منظور ما بعد كولونيالي. وقد حظيت أعماله بتقدير دولي، لعل أبرزه القراءة النقدية المطولة التي خصصها له المفكر الأمريكي **وارن مونتاغ** في مجلة .*Décalages* (2020)

1. المؤلفات المركزية:

_**الفلسفة والحضارة: تأملات حول فكرة الغرب** *(Philosophie et civilisation: Considérations sur l'idée d'Occident).*

يعد هذا الكتاب حجر الزاوية في مشروعه، حيث يحلل مفهوم الـ **Bestimmung**(التحديد والمصير) وكيف وظفته الفلسفة الأوروبية لجعل أصلها اليوناني "مصيرًا حتميا" للبشرية جمعاء.

2. الدراسات والمقالات الدولية:

_**الفلسفة والفلسفة الإسلامية: الفلسفة وتوظيفها** *(Philosophie et philosophie islamique: la philosophie et son usage)*. " نشر في مجلة **Revue de métaphysique et de morale** (2009).

_**ماركس والجزائر** :"تتبع دقيق لتحولات فكر ماركس وتخليه عن "المركزية الأوروبية" بعد احتكاكه بالواقع الجزائري والشرقي.

من أرشيف الفكر إلى راهنية النقد

تتجلى استمرارية هذا المشروع الفكري في قدرته على التجدد؛ فمنذ محاضرته القيمة سنة **2010** حول **"إنجلز والفلسفة"**، والتي فكك فيها العلاقة بين المادية والتاريخ، وصولا إلى كونه **ضيف الكلية لشهر أفريل 2026** بمقاله المرتقب **"هيغل ونحن."**

في مقال **"هيغل ونحن"**، يضعنا مولفي أمام تساؤلٍ وجودي ومعرفي: كيف يمكننا نحن _ سكان "الخارج" عن المركزية الأوروبية _ أن نتعامل مع إرث هيغل؟ هل هو إرث إقصائي صرف، أم أن هناك مساحات للاشتباك معه نقدياً لاستعادة دورنا في التاريخ؟

إن محمد مولفي هو أحد الفلاسفة الجزائريين القلائل الذين يأبون أن تضع يقظتهم النقدية أوزارها. إنه يثبت أن الفيلسوف المتواجد في وهران، بعيدا عن أضواء العواصم الكبرى، يمتلك من قوة الخارج ما يجعله يرى شروخ الهيكل التي يعجز القاطنون داخله عن رؤيتها.

"إن العقل الذي لا يرى آلام الآخرين، هو عقل يحتاج إلى إعادة تعريف".

لماذا الجزائر تحديدا؟

يرى مونتاغ أن كون **مولفي** جزائريا هو ما يعد نقطة قوة حقيقية. فالجزائر عاشت الاستعمار بكل ثقله وقسوته، وهذا يمنح المفكر الجزائري قدرة على رؤية ما يعجز الفيلسوف الأوروبي عن رؤيته في نفسه. كمن يقف خارج البيت فيرى العيوب التي يغفل عنها من يسكن داخله.

يضيف مونتاغ ملاحظة ذكية: **مولفي** كتب بالفرنسية، وهي اللغة التي تستخدم اليوم في كثير من الخطابات العنصرية والإسلاموفوبية في فرنسا، فجاء نقده الفلسفي بهذه اللغة بالذات نوعا من **المقاومة المزدوجة**.

الفكرة المحورية للكتاب

قبل أن ندخل في تفاصيل الفلاسفة، يجب أن نفهم الفكرة الكبرى التي يدور حولها الكتاب:

الفلاسفة الأوروبيون الكبار، من كانط إلى هايدغر، لم يكتفوا بدراسة الحقيقة والمعرفة، بل بنوا ضمنيا صورة عن أوروبا بوصفها المركز الحقيقي الوحيد للعقل والحضارة، وجعلوا من اليونان القديمة (البداية الحقيقية الوحيدة) للتاريخ الإنساني، متجاهلين عن قصد أو غير قصد كل ما أسهمت به الحضارات الأخرى.

_ ماذا قال كل فيلسوف؟

بكلام بسيط:

أولا مع كانط: اليونان هي البداية "الحقيقية" للتاريخ

كانط كان يتحدث عن تاريخ إنساني شامل يخص كل البشر. لكن حين جاء للتفاصيل، قرر أن التاريخ "الحقيقي" يبدأ مع المؤرخ اليوناني ثيوسيديدس فقط، لأن اليونانيين هم من فهموا أن الأحداث ليست عشوائية بل لها غاية ومعنى.

وأضاف فكرة مثيرة للجدل: اللغة اليونانية وحدها هي التي تستطيع أن تعبر عن المعنى الحقيقي حتى للكتب المقدسة لشعوب أخرى. أي أن الكتاب المقدس العبري لم تظهر حقيقته إلا حين تُرجم إلى اليونانية! وهذا ما يسميه **مولفي "الترجمة بوصفها استعمارا:** أي أن تقول لشعب آخر ((نحن نفهم نصوصكم المقدسة أفضل منكم)).

ثانيا مع هردر: الشرق القديم جمع معلومات، لكن اليونان فهمت

هردر كان أكثر تقديرا للتنوع الثقافي من كانط، وانتقد فكرة أن هناك حضارة أعلى من غيرها. لكنه في النهاية وقع في التناقض ذاته: قال إن المصريين والبابليين وغيرهم توصّلوا إلى اكتشافات علمية رائعة، غير أن هذه الاكتشافات بقيت مبعثرة غير مفيدة حتى جاء اليونانيون ورتبوها ومنحوها معناها الحقيقي!

والأغرب، كما يشير **مولفي**، أن هردر الذي أدان العبودية في مصر وجزر الهند الغربية، تجاهل تماما أن الفلسفة اليونانية التي يمجدها كانت قائمة هي الأخرى على العبودية.

ثالثا مع هيغل: أوروبا هي ذروة التاريخ والغاية منه

هيغل هو الأكثر صراحة وجرأة في هذا الطرح. فهو يقول بشكل مباشر إن التاريخ الإنساني كله يسير نحو غاية واحدة هي :**الروح الأوروبية**، وبالتحديد الألمانية.

أما الفلسفة الشرقية (الهندية والصينية والإسلامية)، فهي ليست فلسفة حقيقية بل "ما قبل الفلسفة"، مجرد مقدمة لم تفض إلى شيء. وهيغل يعترف بشيء مثير: يقول إن الأوروبيين تأثروا بالثقافة الهندية مثلا، لكن "عظمتهم" تجلت في **نسيان هذا التأثر والتخلص منه !** أي أن النسيان المتعمد لإسهامات الآخرين هو ما يبني الهوية الأوروبية، لا الإبداع الأصيل.

رابعا مع ماركس: بدأ متعجرفا ثم تراجع

ماركس في بداياته كان يقول صراحة إن أوروبا الصناعية هي نموذج المستقبل الذي يجب على كل شعوب العالم السير نحوه. وكأنه يقول لشعوب آسيا وأفريقيا: "انظروا إلى أوروبا، ستعرفون كيف سيبدو مستقبلكم."

لكن **مولفي** يتتبع تحولا مهما في فكر ماركس: حين اندلعت انتفاضة الهند 1857، وحين درس الأوضاع الزراعية في روسيا، ثم حين زار الجزائر في آخر حياته، بدأ ماركس يراجع أفكاره ويقر بأن التاريخ ليس خطا واحدا يسير نحو النموذج الأوروبي، بل تواريخ متعددة لكل شعب خصوصيته.

خامسا مع نيتشه: ناقد لكنه لا يخرج من الدائرة

نيتشه يختلف عن الآخرين في أنه كان أشد الناقدين للحضارة الأوروبية، وقال إن كثيرا مما تعتز به أوروبا هو في الحقيقة انحدار وضعف. لكن **مولفي** يلاحظ أن نقد نيتشه ظل نقدا **من الداخل** :هو يريد أن "ينقذ" أوروبا ويعيدها إلى قوتها، لا أن يتجاوزها.

الإسهام الأهم الذي يستخلصه **مولفي** من نيتشه هو فكرة **الترجمة بوصفها غزوا:** فنيتشه لاحظ أن الرومان حين كانوا يترجمون الشعر اليوناني لم يسعوا لنقل روحه، بل كانوا يحولونه إلى شيء روماني خالص، يمحون اسم الشاعر الأصلي ويضعون أسماءهم بدلا منه. يقول نيتشه: "كانوا يغزون حين يترجمون". وهذا ما فعله الاستعمار الأوروبي مع ثقافات آسيا وأفريقيا.

سادسا مع هوسرل: يحارب العنصرية بأدوات عنصرية

هوسرل كان فيلسوفا يهوديا يعيش في ألمانيا النازية، فكان يخشى التصنيفات العرقية التي كانت تهدد وجوده. لذلك بنى فلسفة "كونية" تقول إن العقل متاح لجميع البشر دون تمييز.

لكن **مولفي** يكشف التناقض المثير في محاضرته الشهيرة عام 1935: فهوسرل الذي يتحدث عن الكونية، يملأ نصّه بالإشارة إلى "الغجر" و"الأفارقة" و"البابويين" (سكان غينيا الجديدة) بوصفهم أمثلة على من هم **خارج** الحضارة الحقيقية. بل إنه يقول حرفيا: "البابوي إنسان لا حيوان"، لكنه يضيف أن البابوي لا يمثل عن الحيوانات أكثر من كونه أرقاها! والمسافة بين البابوي والعقل اليوناني لا تقل عن المسافة بين البابوي والحيوان.

أي أن هوسرل جاء يدافع عن نفسه من العنصرية باستخدام منطق عنصري آخر.

سابعا مع هيدغر: الفلسفة توظف الاستعمار

هنا تأتي أشد القراءات إثارة وصدمة. هيدغر في كتابه "ما الشيء؟" يتحدث عن فكرة أن الشعوب تتفاوت في قدرتها على طرح الأسئلة الكبرى، واليونانيون كانوا الأقدر على ذلك فكانوا الأرقى.

لكن المثال الذي يضربه هيدغر لتوضيح هذه الفكرة هو المثير: يقول إن "المهندس الإيطالي" يفهم فورا تصميم قاذفة قنابل لأنها "طبيعية" في إطار تجربته، بينما "المواطن الحبشي من قريته النائية" يقف منها موقف الدهشة والعجز.

والصدمة الكبرى: مونتاغ اكتشف أن هذه الجملة كتبت عام 1935، أي بعد أشهر قليلة من بدء إيطاليا موسوليني حربها على إثيوبيا، حيث استخدمت طائرات مصمَمة من قبل المهندس رودولفو فيردوتسيو لإلقاء قنابل غاز الخردل على القرى الإثيوبية وقتلت قرابة **18ألف مدني** .وكانت هذه الأحداث تناقش على رأس صفحات الجرائد الأوروبية.

أي أن هيدغر لم يضرب مثالا فلسفيا محايدا، بل كان **يستشهد بحرب استعمارية دموية** دليلا على أن الشعوب الأوروبية أرقى فلسفيا وأحق بالتاريخ.

_ الرد الفرنسي

بعد الحرب العالمية الثانية، جاء جيل من الفلاسفة الفرنسيين ليفكك هذه المنظومة الفكرية:

فوكو رأى أن أوروبا ليست منظومة قيم راقية، بل مجموعة ممارسات سلطة وإقصاء. وقد اكتشف ذلك جزئيا حين عاش في **تونس عام 1968** ورأى كيف قمع الطلاب هناك بعنف أشد مما في فرنسا. من "الخارج" رأى ما لا يرى من الداخل.

دولوز وغاتاري قالا إن أثينا لم تكن "أصلا نقيا"، بل كانت ملتقى طرق لثقافات مصرية وفارسية وسكيثية وأخرى. والفلسفة الغربية بنت نفسها بمحو هذا الإرث المتنوّع وادعاء النقاء.

دريدا جعل سؤال الأصل نفسه موضوع فلسفته كلها، وأثبت أن فكرة "البداية النقية" لا وجود لها، لأن كل بداية تحمل في داخلها آثار ما سبقها. لكن **مولفي** ينبه إلى خطر في منهج دريدا: فإعادة تحليل نصوص أفلاطون كثيرا قد يعيد أفلاطون أصلا جديدا حتى وهو يشكك في الأصول.

_ لماذا يهمنا هذا الكتاب اليوم؟

يختتم مونتاغ مقالته بتأكيد ثلاث نقاط جوهرية:

أولا: الفلسفة لم تكن يوما بريئة من السياسة. فمن كانط الذي جعل اليونان بداية التاريخ الحقيقي، إلى هيدغر الذي استشهد بحرب إيطاليا على إثيوبيا دليلا فلسفيا، كانت "الحضارة الأوروبية" أداة للهيمنة بقدر ما كانت مفهوما فلسفيا.

ثانيا :حين تقول أوروبا إنها "كونية" وتمثل كل البشرية، فهي في الحقيقة تضع نفسها في القمة وتقسم البشر إلى من "نضجوا" ومن لم ينضجوا بعد، ومن وصلوا إلى مرحلة العقل ومن لا يزالون في مرحلة سابقة.

ثالثا: قراءة **مولفي** "من الجزائر" ليست عيبا أو انحيازا، بل هي ميزة. فتاريخ المقاومة الاستعمارية الذي عاشته الجزائر منح **مولفي** أدوات فكرية ترى ما يبقى خفيا على حتى أكثر الفلاسفة الأوروبيين نقدا لأنفسهم.

الكاتب

أ.د_محمد كرد 26 مارس 2026

جامعة معسكر

بكلمات بسيطة جدا

الفلاسفة الأوروبيون الكبار الذين ندرسهم في الجامعات لم يكتفوا بالبحث في الحقيقة والوجود والمعرفة. كانوا في الوقت ذاته، أحيانا بوعي وأحيانا دون وعي، يبنون صورة للعالم تقول" :**أوروبا هي المركز، واليونان هي البداية، وكل ما عدا ذلك هو هامش أو مقدمة لم تكتمل".**

محمد مولفي جاء من وهران ليقرأ هذه الفلسفة بعيون من عاش الطرف الآخر من هذه المعادلة، وأثبت أن "الحضارة" التي تحدث عنها هؤلاء الفلاسفة لم تكن فكرة مجردة، بل كانت مفهوما عمل طوال قرنين على تبرير الاستعمار، وإقصاء الآخر، وإنكار إسهاماته في بناء المعرفة الإنسانية.